انفجار بيروت وفساد سلطتها

أتستوعب السينما خراب البلد والناس؟

في 4 أغسطس 2020، وقع انفجار في مرفأ بيروت، طرحت تساؤلات جمّة عن الفساد والنهب والهدر، وعن دور السينما في مواكبة المخاطر والكوارث

نديم جرجوره

أيمكن لأيّ سينما أنْ تُعيد تقديم المشهد البيروتي، الحاصل في 4 أغسطس/آب 2020؟ أيُمكن لأيّ مخرج، لبنانيّ أو عربيّ أو أجنبيّ، أنْ يبتكر من اللحظة (هذه اللحظة وأي لحظة) صنيعاً سينمائيّاً يتساوى وحجم الكارثة، المنفتحة على أهوال مزمنة، وفساد دائم، ونهب يتجاوز المال العام والخاص؟ أيُمكن لأيّ مُشاهدٍ في العالم أنْ يجلس صامتاً أمام شاشة تروي له (إنْ تتمكّن من ذلك)، بصُوَر أو بكلامٍ أو بصمتٍ، بعض موتٍ وبعض جرح وبعض ألمٍ وبعض بكاءٍ وبعض ضياعٍ وبعض دمٍ وبعض دمعٍ وبعض قهرٍ وبعض خيبةٍ وبعض ضياعٍ وبعض صراخ، وهذا الصراخ مُعطّل ومهزوم وتائه، فالجماعة الحاكمة منهمكةٌ فيما يُلبّي شهواتها وغرائزها، وهذه تزداد وتقوى. يوماً تلو آخر. بجوع وفقر وخيبات، والحاصل قبل 3 أيام يؤكّدُ مُجدّداً أنّ الجماعة الحاكمة خارج الزمان والمكان، ومُنفضّة عن الراهن، وغير آبهةٍ ببلدٍ وأناس، وغير مُكترثةٍ بشعب وحقوقه، فالنزاعات بين أطرافها قائمة دائماً، وهذا أهمّ لها لتثبيت موقع وتسلّط، ولتحصين مصلحة وتبعيّات.

تتكاثر الأسئلة. المُصيبة تحول دون تفكيرٍ أو قولٍ يخرجان على أسئلة مُشتّتة، كتشتّتٍ حاصلٍ لحظة الانفجار وبعده، وأمام شاشاتٍ تعرض أشرطة ومتابعاتٍ تعكس هول الكارثة، وحجم القهر، وقسوة الآنيّ. والمُصيبة، التي تطرح أسئلةً من دون أجوبة، تتشابه وقهرٍ مُتأتٍ من انهيارات غير منتهية، ومن بؤسٍ مستمرّ في إنتاج ذاته لحظة بلحظة. يقع انفجار في مرفأ بيروت، فتُعلَن أسبابٌ غير مُقنعة، وتُذكَر وقائع عملية لكشف حقائق ومحاكمة مسؤولين عن الكارثة، لكنْ لا شيء يؤكّد مدى التزام السلطة بـ«تهديداتها»، فالتجارب السابقة كارثيّة ككارثة مرفأ بيروت. والسلطة نفسها تُمارِس ألاعيب تشتهر بها دائماً. في الوقت نفسِه، يتفشّى ادّعاءُ إعلاميّ بأصول مهنة وحِرفيّتها، فيتجنّب إعلاميون كثيرون كلّ ما يكشف اتّساع الهوّة بين المواطن والجماعة الحاكمة لحظة الموت والخراب، كما قبلهما أيضاً، بحجّة قواعد المهنة وأخلاقيّاتها، والمهنة فاقدة قواعد وأخلاقيّات، لأنّ عاملين فيها يُسيئون يومياً إليها.

أسياد الإعلام يحصرون أصول المهنة وأخلاقيّاتها، بعد تشويه الأصول والأخلاقيّات، بمصالح وعلاقات تخرج كلّها على المهنة وأصولها وأخلاقيّاتها من أجل مكاسب ونفوذٍ، بينما كشف الحقائق ممنوعٌ، حمايةً لمصالح وعلاقات ومكاسب ونفوذ.

> **أتمتلك السينما في لبنان ما يُعينها على استباق أحداثٍ؟**

يصمتُ سينمائيون لبنانيون. فشكل المصائب، وبعضها يؤدّي إلى «انتفاضة 17 أكتوبر» (2019)، يتبدّل يوماً تلو آخر، والمصائب تزداد يوماً تلو آخر. لكنّ توقّعَ كارثة كهذه. لن تكون السياسة والصراعات القبائلية والتدخّلات الخارجية بمنأى عنها. كذبٌ وافتراء. والجماعة الحاكمة مرتبكةٌ كارتباكها أمام مطالب محقّة لأناسٍ ترفض منحهم حقوقهم؛ وأمام وباء متفشٍّ في أمكنة وعقول وتفكير، لعجزٍ فادح في أنماط تفكيرها واشتغالاتها وسلوكها ووعيها؛ وأمام انهيار يُصيب الجميع، وكثيرون من هؤلاء الـ«جميع» صامتون وخانعون وموافقون؛ وأمام انفجار يؤدّي إلى مزيدٍ من فضائح وكوارث تتجاوز الماديّ والروحيّ إلى ما هو أبشع وأقسى.

يصمتُ سينمائيون لبنانيون قبل كارثة الانفجار. قلّة منهم تكتب وتقول. قلّة منهم تلجأ إلى صُوَر فوتوغرافية وأشرطة فيديو وحكايات وذكريات قديمة، فهذه فسحةٌ لاستراحة وتأمّل هادئ بعيداً (ولو قليلاً) عن صخب اليوميّ وتفاهته وجنونه وهلوساته. قلّة منهم تُفكّر في مقبلٍ من الأيام والمشاريع. لكنّ هول الانفجار، المتجاوز حالته كانفجارٍ إلى ما هو أسوأ وأخطر وأكثر كارثيّة، يحول دون تنبّه إلى مدى قدرة السينما على مواكبة الحدث، إنْ تكن السينما قادرةٌ على ذلك؛ أو يحول دون قدرة السينما نفسها على ابتكار ما يواكب الحدث ويوثّقه ويُصوّره، أو ما يتفوّق عليه ويسبقه، إذْ تعتاد سينمات كثيرة على استباق أحداثٍ تُعرض على شاشاتٍ قبل حدوثها في واقع، أو ما يُشبه حدوثها في واقع.

لكنْ، أتمتلك السينما في لبنان ما يُعينها على استباق أحداثٍ ومصائب وكوارث؟ براعة أفلامٍ عدّة، وغالبيتها وثائقية، تكمن في كشفٍ وبوحٍ وفضحٍ لسابق، لا في قولٍ يسبق ما يُمكن أنْ يحصل. أي أنّ الحاصلَ نواةٌ لأفلامٍ توثّق لتفضح، وتنقّب لتقول، بينما استباق ما يُمكن حصوله غائبٌ، فبراعة سينما سبّاقة تحتاج إلى مقوّمات غير متوفّرة في بلدٍ يُعاني غياباً مُطلقاً لحاجات أساسية، وبعض تلك الحاجات حُكمٌ ذو أخلاقٍ تكترث بالناس وهمومها، وتصنع بلداً لهم ووطناً يُغريهم بالبقاء فيه؛ وسلطة صائبة في علاقاتها بناسها واجتماعها وحضورها؛ وشعب واعٍ يُحاكِم جماعة حاكمة عند نهبها لحقوقه، وسرقة أمواله، والإساءة في إدارة شؤون بلدٍ واجتماعٍ واقتصادٍ.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

كارثة بيروت: أي سينما سترويها؟ (حسام شبارو/ الأناضول)

أهوال وفظاعات توثّقها الكاميرا غالباً

ماذا بعد استباق الأفلام للواقع؟

تستبق السينما الأجنبيّة، الهوليوودية تحديداً، أحداثاً وحالاتٍ يشهدها العالم لاحقاً. هذا ليس تنبّؤاً، بل تبصّر فنّي، يعثر في كلّ راهن ومسار على نتفٍ تعكس شيئاً من الغد. السينما تذهب إلى أحداث وحالات حاصلة، فتكون أفلامٌ لها مداخل إلى عوالم مخفيّة، وتفاصيل مخبّأة، وأحوال ممنوعة من الانكشاف غالباً.

العلاقة القديمة للسينما بالكوارث، الطبيعية والبشرية، مَصنعُ مليء بكلّ ما يُمكن للسينما أنْ تُنجزه. كوارث الطبيعة والبشر والعلوم والعسكر والأبحاث مسائل تُغذّي سينما تحتاج إلى جديدٍ في آلية الاشتغال، لأنّ المواضيع غير متبدّلة، فالسينما تنهل منها كلّها مراراً. الكوارث جزءٌ من العالم وأحواله ومسالكه وسلوك ناسه. السينما حاضرةٌ، فالصُوَر أقدر على الكشف والبوح والتأثير من كلّ خطاب وقول مباشَرين. هذا غير متعلّق بسينما تجارية، تستهلك الكوارث لصُنع أفلامٍ تشويقية، تُدرّ أرباحاً تتجاوز، أحياناً عدّةً، ميزانياتٍ ضخمة توضع لإنتاج ما يجذب إلى الصالات المعتمة. الصُور الأقدر على الكشف والبوح مُنبثقةٌ من سينما تلتقط حساسية اللحظة وما يؤدّي إليها، وما ينتج منها لاحقاً؛ ومُنجَزةٌ بأدواتٍ تبغي ما يعجز اللسان عن قوله ووصفه؛ ومُتأتيةٌ من شعورٍ فرديّ يريد مواكبة ما يحصل، لاستشرافِ ما سيحصل ربما، من دون التغاضي عن سابقٍ يُفترَض به أنْ يُساعد على فهمٍ وإدراك، وإنْ يكن الفهم والإدراك مُشوَّشينَ غالباً.

للخيال العلمي جاذبيّة تتمكّن من التحريض على متعة وارتياح واكتشافاتٍ. ورغم أنّ أفلام خيال علميّ تُحذّر من المُقبلِ

«المركز العالمي للتجارة»: أفلام سابقة لا لاحقة (سِثْ ماكالّيستر/ فرانس برس)

> **الصُور السينمائية أقدر من غيرها على الكشف والبوح**

بكشفها الحاضر، أو بعضه على الأقلّ، تبقى أسيرة التجاريّ الاستهلاكيّ غالباً، مع أنّ بعضها يستند إلى فلسفة وتأمّلاتٍ ومراقبة، ويُعيد صوغ المشهد، ويطرح الأسئلة، انطلاقاً من ارتباك أو اضطراب أو قلق أو خوف أو رغبة في معرفة مُسبقة. المؤثّرات البصرية، التي يُقدّمها تطوّر التقنيات، إضافة بصرية تجمع بين الواقعيّ والغرائبيّ وغير المتوقّع، كأنّها تُنبِّه إلى أنّ الواقعيّ موجودٌ دائماً، وأنّ الغرائبيّ فاعلٌ في الراهن، وأنّ غير المتوقّع يُصبح الأكثر حضوراً وتأثيراً في يومياتٍ تصنع غداً.

فيروس كورونا مثلٌ أخير. أفلامٌ عدّة تقول، قديماً، ما يعيشه العالم اليوم. اقتراحات سينمائية تكشف هول الحاصل في مختبرات، وبعض تلك المختبرات عسكرية/ استخباراتية، كأنّها (الاقتراحات) تلتقط مسبقاً ما يحصل راهناً. لكنْ، أتتمكّن السينما من إنتاج إضافاتٍ لاحقة، تتخطّى توثيق عيش وارتباك وتساؤلات لأناس مُقيمين في مخاوف الوباء؟ أتقدر السينما على تحويل صُوَرها إلى شهاداتٍ تخرج من البوح الفرديّ إلى جديدٍ غير متوقّع؟ ما الذي تفعله السينما اليوم، بعد 19 عاماً على جريمة الاعتداء على الولايات المتحدّة الأميركية، في 11 سبتمبر/أيلول 2001؟ وثائق. سرّية وغير سرّية تنكشف حالياً. أفدح من قدرة السينما على «التنبّؤ» بكارثة كهذه، أو على تصوير الكارثة، رغم محاولات عدّة، وبعضها جاذبٌ ومهمّ. تُرى، أتكتفي السينما بفعلٍ يسبق حدثاً، بينما تعجز عن قولٍ لاحقٍ للحدث، لشدّة هول الحدث؟

تساؤلات لا أكثر. انفجار مرفأ بيروت، في 4 أغسطس/آب 2020، كارثةٌ تكشف مزيداً من خراب يعتمل في روح البلد وجسمه، وفي جماعة حاكمة تتعنّت، رغم كلّ شيء، في رفضها المدوّي تحمّل مسؤولياتها الكارثية عن أهوالٍ، يقول الانفجار إنّها (الأهوال) مُرشّحةٌ لمزيدٍ من الفضائح.

نديم...

أفلام جديدة

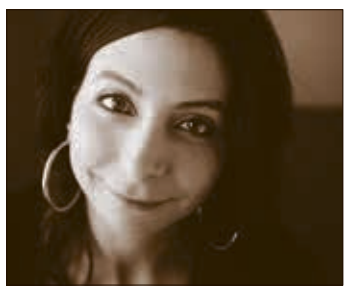

■ «السجناء الزرق» (75 د.) وثائقي لزينة دكّاش (الصورة): سجناء ذوو اضطرابات نفسية ارتكبوا جرائم، واحتُجزوا في سجون لبنانية، وغالبيتهم مُقيمةٌ في مأوى احترازي في سجن رومية، يُشكّلون محور الفيلم الوثائقي، المُصوّر أثناء جلسات «العلاج بالدراما والمسرح»، التي أقامتها دكاش بين عامي 2015 و2016، في سجن رومية نفسه. يغوص في تجارب سجناء ذوي اضطرابات نفسية، يُعبّرون عن صعوبة وضع مرتكب جُرمٍ مُصاب باضطراب نفسيّ، في ظلّ موادٍ قانون العقوبات (1943)، الذي ينصّ على أنّ هؤلاء السجناء «مسجونون» حتى يُثبت شفاؤهم. تصوير كريم غريّب، مونتاج ميريام جعجع.

■ Vs. لأد ليلّي، تمثيل كونور سويندلز وفولا إيفانز. أكينغْبولا (الصورة) وبايج ميد: مُراهقٌ موهوب جداً بلعبة الكلمات، يُعاني أزمة عيش، فهو ينتقل من أسرة حاضنة إلى أخرى، بسبب عجزه عن التأقلم مع عائلة واحدة. بعد سنين مديدة، يصل إلى منزل والدته، فيُواجه أسوأ ما يُمكن للمرء أنْ يواجهه: ماضيه، وأشباح ماضيه.

■ Les Blagues De Toto لباسكال بورديو، تمثيل غافريل دارتوفل وآنّ ماريفان (الصورة): أفضل من يُضحك زملاءه في المدرسة، مراهق يُدعى توتو، الذي يجعلهم يتغاضون عن الدروس اليومية. ومع والديه، عندما يبدأ إضحاكهما، تقع «كوارث»، آخرها يتمثّل في سقوط تمثال على الأرض وتحطّمه، أثناء احتفال نظّمه رئيس والده. لكن، هناك ما يدفعه إلى التشديد على «براءته» من سقوط التمثال. فهل هو الفاعل، أم أنّ هناك دخيلاً يريد الإساءة إليه؟

■ Grennland – Le Dernier Refuge لريك رومان ووغ، تمثيل جيرارد باتلر وموريناً باكّاران (الصورة) وسكوت غلين: مُذنّب سيصطدم قريباً بالأرض، ويُسبِّب كارثة كبيرة. هذا دافع لجون غارّيتي للبدء برحلة الهروب مع زوجته أليسون وابنهما ناثان، بحثاً عن ملاذ يقيهم من نتائج تلك الكارثة المنتظرة.

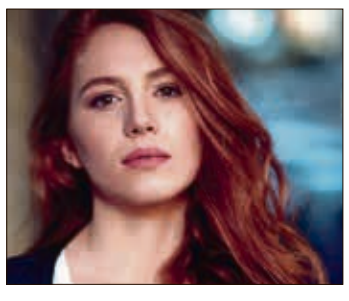

■ Le Defi Du Champion لليوناردو داغوستيني، تمثيل ستفانو أكّورسي ولودوفيكا مارتينو (الصورة): نجم كرم القدم الشاب كريستيان متمرّد وجامح وثريّ للغاية. يُغامر كثيراً، لكن رئيس النادي يجد نفسه مضطراً إلى إعادته إلى الخط المستقيم من أجل النادي والمباريات المقبلة. الشرط الوحيد لهذا؟ يجب على كريستيان أنْ يدرس وأنْ ينجح في امتحانات البكالوريا.